



الأصم..!

— آمال لواتي - الجزائر —

داعب لحيته القصيرة، أخذ الجريدة التي كانت معه، ملأ صفحة التسلية بخطوط متداخلة غير مفهومة، مر على كل الصفحات بتمتة ساخرة، ثم طوى الجريدة، صنع منها زورقا ورقيا لعله يريد أن يبحر يوما كالسندباد، راح يقلب مقلتيه هنا وهناك، كأنه ينتظر جليسه المعتاد ليتقاسما الحديث عن السياسة، عن الفكر، عن الفن، عن أي شيء...

اتجه إليه محدثه مرة أخرى، ملعاً على مخاطبته، مستفسراً عن برودة أعصابه ومشاعره تجاهه وتجاه الآخرين، وتجاهله الفامض لثورته أمامه إزاء هذا التغير المفاجئ بعد غيابه.

رغم أنه لم يسمع احتجاجه وأسئلته، قال له: ماذا تقول يا محدثي؟ إني لا أكاد أسمعك، فالبعد بيني وبينك، بعد لا تقيسه السنون، ولا تدركه الحقيقة!..

اقترب منه أحد رواد المقهى العتيق بثيابه الأنيقة، وعطره السديمي، اتخذ زاويته المعتادة، جلس على طاولته، ألقى التحية ولكن لم يبال به أحد..!

اتكأ على الكرسي حيناً، طوى ساقاً على ساق حيناً، قلم أضافره بأسنانه القلقة.. وضع يده على خده الخجول ماسحاً، وقد رشه لعاب محدثه المتناثر كرزاذ في فصل قاحل، والذي مازال يتكلم، وقد اشتدت حدة كلامه. وراح يحدق فيه ذاهلاً..!

رغم أنه اعتاد أن يردش معه كلما التقى به، فهما من زوار هذا المقهى الدائمين، ويحدث أن يتحاورا كلما اجتمعا على ارتشاف قهوة قبل ذهابهما إلى مشاغلهم، وإن كانت لا تجمعهما علاقة صداقة أو قرابة أو عمل..

هدأ المتحدث قليلاً، فك بعض أزرار قميصه كأنه كاد يختنق من أنفاس سيجارته الرمادية.. تنفس الآخر بتأفف.. احتسى قهوته حتى الثمالة،

كنت صحافيا شابا يغمرنى الأمل والطموح، دخلت عالم الكتابة الصحفية وشعاري في كل مقالاتي: الإصلاح والتغيير من أجل مستقبل آمن ومؤمن.

وكان قلبي حاداً قاطعاً كالسيف، باترا لكل الأفكار المريضة والمشوهة، والسلوكيات الملتوية والشاذة. ولما اشتدت زوبعة واقعنا السياسي والاجتماعي، واختلطت فيه كل الموازين والقيم، وأصبح كل واحد يتناول على الآخر بشتى النعوت والتهم؛ كتبت آخر مقال عنوانه: الفتنة هي اختلاط الحق بالباطل..!

أثار ضجة عنيفة، إثرها تلقيت تهديدات بالموت من طرف مجهولين يدعون أنني شبهتهم بمطاردي الجبال، وبالصعاليك والخوارج... وبعدها فصلت من الجريدة دون شرح أو مبرر. فأدركت أيضاً أنني حدت عن مداعبة عقول الناس، وتخديرهم بالكلمات الجوفاء، وتضليلهم عن فهم واقعهم المر، انزويت في منزلي بين رفوف مكتبتي الصغيرة متتبعا وحي القلم عبر الأجيال والعصور، يساورني الخوف واليأس حيناً، والصبر والأمل حيناً آخر..! إلى أن داهمني في ليلة داجية زوار ملثمون قيدوني بحبال غليظة، أغمضوا عيني بعصابات سوداء، ثم يأبھوا بصراخ زوجتي المسكينة التي لم يمر على زواجنا إلا بضعة شهور، وقادوني إلى حيث لا أدري؟!

وجدت نفسي في إحدى المغارات العجيبة، فيها كل مستلزمات الحياة، وليس فيها مبررات الحياة، عانيت البرد والجوع، والظلام، والألم، والعزلة والقيء، أنتظر محاكمة أميرهم ليحكم علي بالإعدام لأنني لم أفصل في جدلية العنف والسلم في بلدي، بل لأنني في مضامين مقالاتي كنت رافضاً للعنف، محباً للسلم، بل اتهموني بالردة والتعلق لما يسمونهم بالطغاة..!

فأذناي قد صمتا من ضجيج أفكارى المبعثرة في ساحة أعماقي، المملوءة نتوءات، وحفرًا منذ أن سكنتها الآلام والهموم، من ثثرة نفسي التي دمرتني بفلسفتها وفتاويها..

قد صمتا من احتجاج الأرض وتذمرها بعد أن جفت واحترقت وتعفنت تربتها بالجثث والدماء..

قد صمتا من دقائق الزمن الرهيبة الناعية بالمآسي والدمار... فاعذرني يا أخي! لست نافرا منك أو لا مباليا..!

نظر إليه بإعجاب واستغراب: إنه كالفيلسوف، والفلاسفة عادة يتأملون ثم يتكلمون، لا.. بل كالشاعر، فالشعراء يسبحون، ويتألمون، ثم يشعرون.

فقاطع سيل خواطره قائلاً: أعرفت أنني أصبحت أصم لا أسمع شيئاً؟!

قطب المحدث حاجبيه، وقد بدت عليه ملامح الحزن والخذلان مشيراً بإصبعه إلى أذنه مستكراً صممه..!

ضحك في أعماقه مرة أخرى قائلاً: إنني لست متألماً، بل إنني جد سعيد، فماذا فهمت من أصداء الحياة، وقد كنت ملكاً بحواسي، إنني أعيش الانزواء والصدق مع نفسي، فما جدوى أن تعيش متوجعاً في كل اللحظات، ترى كل ما لا يرى وتسمع كل ما لا يسمع! لكن لا تجرؤ على الكلام..!

إنني غارق في لجج الصمت رغماً عني، إنني لست هروبياً، أو رومانسياً، أو سلبياً، إنني أفسر ذهاب الناس، وإيابهم، وركضهم في المسافات الطويلة بحثاً عن أي شيء، وهم خائفون من السؤال، من التأمل، من الانتظار، من الرفض، من التغيير، من الكلام...

اقترب منه أكثر محولاً كرسيه إلى جانبه مشيراً إليه متسائلاً؟ فهم أنه يريد أن يعرف حقيقة أمره..!

صمت بعض الشيء... تهد تهداً طويلاً وعميقاً.. وبدأ يروي قصة صممه:



الحسار

محمد أحمد حمادو- النيجر

أنحدر من سلالة توارثت المجد والزعامة في ربوع الأرض الأفريقية ردحا من الزمن ، وأفراد قبيلتي تنتشر على نطاق واسع.

كنت عميلاً لأحد المعسكرين، وبسبب الجاسوسية وفي سبيلها ضحيت بكل غال ونفيس، وكوني محل ثقة غالباً زاد من جرأتي فوق ما أنا جريء..!

باشرت عملي بحماسة ظاهرة، وكان علي أن ألبس لكل حالة لبوسها، وأجابه التحديات بكل ما يستطاع.

تدربت ضمن بعثة وعصاية تستوطن بلاد يأجوج ومأجوج.. الصين الشعبية، وغامرت حتى تبوأ مكانة رفيعة، وفي غمرة النجاح الذي حققته تدرجت في سلم الترقيات إلى أن أصبحت رئيساً لدولة أفريقية ناشئة.

لم أكن الذراع الطويلة للشيوعية فحسب، بل إن مهمتي الأساسية تتمثل في تقديم الدعم اللوجستي والمادي للإرهاب، وكان هذا الدعم ضرورياً لننطلق إلى غايات محددة مسبقاً.

مرت أعوام وأعوام وأنا سادر في غيبي.. إلى أن جاء اليوم الذي أصبحت فيه أمير نفسي. وقفت على الملأ معلناً موت الشيوعية في بلدي، حاولت أن أكفر عما سلف، ولكن يبدو أن نزع الشوكة ليس من السهولة بمكان. وهل يمكن رد الروح بعد نزعها؟! ولكن كان علي أن أحاول.

رحت بعيداً واعتزلت المجتمعات، وفي إحدى المغارات طويت صفحتي قبل أن أرى مد الشيوعية

ينحسر

وقبل أن يقام علي الحد بساعات قلائل.. إما ذبحاً، أو شنقاً، أو قتلاً بالرصاص.. تسلل إلي أحدهم رغم قساوة ملامحه.. بدا متسامحاً وحزيناً فنك وثاقي، وتسلل بي عبر مسالك خفية، إلى أن ابتعدت عن مكانهم، فتركني مسرعاً..

لم أودعه، ولم أسأله طول المسافة عن هذا التصرف الإنساني! ما إن وصلت إلى بر الأمان حتى سقطت على الأرض، ولم أفق إلا بعد أيام في المستشفى وقد أصابتي حمى قاتلة، وظللت أهذي بكابوس العذاب والموت، ولم أصدق كيف نجوت وامتد أجلي.. ووجدت نفسي لا أرى ولا أسمع.. الحقيقة الوحيدة المتمثلة أمامي هو أنني موجود، ولا يهم كيف أنا موجود!

وبدت ملامح الوجوه تبدو أمام عيني شيئاً فشيئاً، لكنني بقيت لا أسمع، فحمدت الله على نعمة البصر.

ومنذ خروجي من المستشفى وأنا في عزلة تامة، أرى وأشاهد بعيداً عن الجدال والحوار والكلام غير المجدي في واقع الفتنة.. وأطرق منكساً رأسي في صمت حزين..!

مد المحدث يده مودعاً، وبريق الدموع يجول في عينيه الفائرتين، ومضى الأصم إلى عزلته المقدسة، توضاً من الجو المعفر، دخل المسجد، صلى النافلة، وأخذ المصحف ليقرأ عن غربة الفتية في سورة الكهف.. وتمنى أن يفرق في سبات عميق في أحد الكهوف لعله يبعث ليرى أناساً غير هؤلاء الناس، وواقعاً غير هذا الواقع، لكنه تأوه فجأة متأسفاً مذعوراً لأن كل الكهوف أصبحت محجوزة كالفنادق لكل فضائل المعارضين والهاربين